صِيغَةُ (أَفعال) مُضافَةً إلى الضَّمِيرِ (ها) في القُرْآنِ الكَرِيمِ

أ.م.د. محمد توفيق الدُّغمان
كليّة الآداب - جامعة الانبار

م.د. زهراء خالد سعد الله العبيدي
كليّة الآداب - جامعة الموصل

فحوى البحث

يقع البحث في هذه الصيغة: في أي المواطن ذكرت؟. وفي أي المواضع استعملت؟. ولماذا اختيرت؟. ماذا جاورها؟. وما دلالتها؟. وماذا لو سقطت؟ وماذا لو اضيفت الصيغة الى الاسم الظاهر؟. وما أثرها في الدلالة السياقية للنص القرآني؟. وبعد تلمُّس مواطن الملابسة بالضمير (ها)، والفرق بين دلالات الإضافة والتجريد، في كتب التفسير واللغة والنحو والمعاجم والمشكل والغريب، نبَّه الباحثان الى عدد من الدلالات القصدية السياقية في الصيغة والضمير. وقد جاء البحث في تمهيد عن دلالة الضمير واربعة مباحث.

تمهيد في دلالة الضمير:

تدور معاني (ضمر) حول الخفاء والضآلة، فالضُّمُر بضم الضاد والميم أو بإسكان الميم، هو الهُزال، لأن؛ «الضُمر بالضم الهزال، ولحاق البطن... والضُمر من الرجال الضامر البطن... وتَضمير الخيل أن تُشَدَّ على سروجها، وتُجَلَّل بالأجِلَّة، حتى تُعَرَّفَ تحتها فيذهب رهلُها، وقضيب ضامر، منضمر وقد انضمر اذا ذهب ماؤه... والضمير: العنب الذابل»[1].

هذه الأصول والمشتقات، تميل بمعانيها إلى (الهزال، وذهاب الرحل، وذهاب الماء، والذبول) وكلها تؤدي معنىً واحداً هو الانكماش، وثمة وجه آخر هو أخفى مما أومأت اليه؛ وهو «السر داخل الخاطر...، والشئ الذي تضمره من العادات ما كان عن تسويف، والمال الضمار هو الغائب»[2]، والضمير ما تُضمره في نفسك ويصعب الوقوف عليه، وبما أن الغرض من استعمال الضمائر الاختصار، فإنّ ذلك يتماشى مع المعنى اللغوي الذي هو الخَفاء والانكماش.

هذا في اللغة أما الضمير اصطلاحا: فهو (فعيل) بمعنى اسم المفعول، أي (المضمر)، وإنما سمي ضميراً، لأنّه من؛ أضمرت الشئ إذا سترته وأخفيته، وقيل: سمي بذلك لكثرة استتاره[3]. والضمير من مصطلحات البصريين، وأما الكوفيون «فيسمونه كناية ومكنياً، لأنه ليس باسم صريح»[4]. وهو عند النحاة: ما دلَّ على متكلّم كـ (أنا)، أو مُخاطَبٍ كـ (أنتَ)، أو غائبٍ كـ (هوَ).

لقد تعرض النحاة للضمير تعريفاً وتوصيفاً، فسيبويه (١٨٠هـ)، اجتزأ قائلاً: «وأما الإضمار فنحو: هو وإياه وأنت»[5]، ونبعد قروناً، فإذا بابن يعيش (٦٤٣هـ) يصفه بأنه: «اسم كني به عن اسم»[6].

(١) اللسان: لابن منظورالافريقي المصري: ٤/ ٤٩١، (ضمر).
(٢) اللسان: لابن منظور: ٤/ ٤٩١، (ضمر).
(٣) ينظر معجم الافعال المتعدية بحرف: ٢٥١، و شرح شذور الذهب: ١٣٤ وشرح التصريح، للشيخ خالد الازهري: ١/ ٩٥ ومعاني النحو: ١/ ٤٥.
(٤) شرح التصريح: ١/ ٩٥.
(٥) الكتاب، سيبويه: ٤/ ١٢٧.
(٦) شرح المفصل، لابن يعيش: ٣/ ٨٤.

وعَرَّفه الرضي (٦٨٦هـ) بقوله: «ما وُضع لمتكلم، أو مخاطب، أو غائب تقدم ذكره لفظاً أو معنى، أو حكماً»[٧]. وزاد ابن كمال باشا(٩٤٠هـ) فقال: هو «الاسم المتضمن للإشارة الى المتكلم، أو المخاطب، أو الغائب بعد سبق ذكره لفظاً تحقيقاً، أو معنى، أو حكماً»[٨]. واعتذر السيوطي (٩١١هـ) عن التعريف فقال: «ولكونه الفاظاً محصورة بالعدّ استغنينا عن حَدِّهِ كما هو اللائق بكل معدود كحروف الجر»[٩]. وليس هذا بالاستقصاء، لكنه بيانٌ مُعَبِّرٌ.

ومع أنّهم ربطوا بين الضمير والاسم العائد إليه، إلا أنّه اقتضى تقدم المفسّر على الضمير الغائب؛ «لأنَّه وضعه الواضع معرفة لا بنفسه، بل بسبب ما يعود عليه، فإن ذَكَرته ولم يتقدمه مفسر بقي مُبهماً منكَّراً لا يعرف المراد به»[١٠]، إلا لغرض بلاغي يقتضي ذلك، كما في ضمير الشأن، وفي البيان بعد الإبهام. إذ ليس من الضرورة أن يكون عائدُ الضمير مذكوراً في الكلام، فقد يُستدل عليه من المعنى أو من السياق، أو يعود على بعض ما تقدم، وذلك من الإيجاز الذي يقوم مقام الإكثار والإظهار. وقويَ إضمار هذا لشهرة الاستعمال فيه، وللضمائر وظيفة خاصة من أجلها وجدت في الاستعمال اللغوي، وهذه الوظيفة لخطرها استلزمت بقاء الضمائر، ودوام استعمالها بدوام اللغة.

لقد بين القدماء أنَّ الغرض من استعمال المضمرات هو الإيجاز والاختصار والاحتراز من الإلباس،

« فأما الإيجاز فظاهر؛ لأنّك تستغني بالحرف الواحد عن الاسم بكامله، فيكون ذلك الحرف كجزء من الاسم، وأما الإلباس؛ فلأَنَّ الاسماء الظاهرة كثيرة الاشتراك، فاذا قلت: زيد فعل، جاز أن يتوهم في زيد الثاني أنّه غير الأول، وليس للأسماء الظاهرة أحوال تفترق بها إذا التبست، وإنّما يزيل الالتباس منها في كثير من أحوالها الصفات... والمضمرات

(٧) شرح الرضي على كتاب الكافية في النحو: ٢/ ٣. وينظر: شرح ابن عقيل على الفية ابن مالك: ١/ ٨٨.
(٨) أسرار النحو: لأحمد بن سليمان (المعروف بابن كمال باشا): ١٧٠.
(٩) همع الهوامع في شرح جمع الجوامع، للإمام جلال الدين السيوطي: ١/ ٥٦.
(١٠) شرح الرضي: ٢/ ٥.

لا لَبس فيها، فاسْتَغْنَتْ عن الصفات؛ لأنّ الأحوال المقترنة بها قد تغني عن الصفات، والأحوال المقترنة بها: حضور المتكلم، والمخاطب، والمشاهدة، وتقدم ذكر الغائب الذي يصير بمنزلة الحاضر المشاهد في الحكم»[11].

أما من جهة التعريف «فأَعْرَف المضمرات المتكلِم، لأنّه لا يُوهِم غيره ثم المخاطب، والمخاطب تلو المتكلم في الحضور والمشاهدة، وأضعفها تعريفاً كناية الغائب، لأنّه يكون كناية عن معرفة ونكرة، حتى قال بعض النحويين: كناية النكرة نكرة»[12].

كذلك اختلفوا في الضمير العائد إلى النكرة هل هو نكرة أو معرفة؟، فـ «قيل إنّه نكرة مطلقاً، وقيل معرفة مطلقاً، وقيل: إنّ النكرة التي يرجع الضمير إليها، إمّا أن تكون واجبة التنكير أو جائزته، والأول كضمير (رُبّ) ونحوه، وإذا كانت جائزة التنكير كما في قولك: جاءني رجل فأكرمته، فالضمير معرفة»[13].

هذا موجز عن الضمير ودلالاته عند النحاة، وإذا كان فريق من مفسري القرآن الكريم قد توقف عند توجيهاتٍ محددة في بيانه لدلالات اتصال الضمير (ها) بصيغة (أَفعال)، فليس هناك ما يمنع من محاولة لإضافة توجيه جديد في أمثلة مستقرأة من القرآن الكريم يُظهِرُ فيها التوسعُ دلالة لم يُشَر إليها في السياق، وتُظهِر هي قصديةً في الخطاب، وتعييناً ونسبةً. نسأل الله التوفيق والفتح، إنه سميع مجيب.

المبحث الأول

دلالات نوعية

دلالات الإضافة والصيغة في الكلمتين (أبواب و أقفال).

١. دلالات نوعية في إضافة الضمير (ها) لكلمة (أبواب):

صيغة (أفعال) من صيغ جموع التكسير الدالة على القلة، «وإذا قُرِن جمع القِلَّة بـ: (أل) التي للاستغراق، أو

(١١) شرح المفصل: ٨٤٠٣، وينظر ضمائر الغيبة أصولها وتطورها، بحث للدكتور فوزي حسن الشايب، مجلة حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية، مجلس النشر العلمي- جامعة الكويت المجلد: ٨ العدد: ٤٦ ١٩٨٧: ص١١.

(١٢) شرح المفصل: ٣/ ٨٤ -٨٥.

(١٣) الكليات لأبي البقاء: ٥٧١.

أُضيف إلى ما يدلُّ على الكثرة، يعني: ما تدلُّ الإضافة إليه على الكثرة وهو المعرفة مفردةً أو جمعاً، لأنَّ الإضافة إلى المعرفة تعم ما لم توجد قرينة تخصيص»[١٤]، وكذا إن أضيف إليها الضمير وهو معرفة دلّت على الكثرة، أما النكرات فهي تدل على العموم فإن أضيف لها اسم أو ضمير دلّت على الخصوص، ودلالة عموم الإضافة هي الاختصاص أيضاً، فالإضافة إذن هي اصطفاء القليل من الكثير، وقد يوصل الضمير إلى دلالة الاختصاص مبتعداً بالسياق عن إرادة العموم فينحصر الأمر في فرد واحد من أفراد غير محدودين بعدد.

ففي قوله تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ۗ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾[سورة البقرة: ١٨٩]، «إتيان البيوت من ظهورها كناية عن العدول عن الطريق الصحيح، وإتيانها من أبوابها كناية عن التمسك بالطريق الصحيح»[١٥]. من هنا ذكروا أنه «يحتمل أن يكون هذا تمثيلاً لتعكيسهم في سؤالهم، وأنّ مَثَلهم فيه كَمَثل من يترك باب البيت ويدخله من ظهره،... -والمراد -أي: وباشروا الأمور من وجوهها التي يجب أن تُباشر عليها، ولا تُعَكِّسوا»[١٦].

هذا كلام لطيف، لكننا نناقش من طرفٍ خفي، ما لم يَظهَر لنا، ولا كُشِفَ منه سرّ، ولا رُفع عنه ستر، فالدلالة المرجوة تكمن في قوله تعالى: ﴿ أَبْوَٰبِهَا ﴾، وما أدراك ما أبوابها؟.

تأمّل قليلاً في هذه الكلمة، وتركيبها العجيب، بين دلالة الاتساع والتخصيص، تجد السياق نَكَّرَ الأبواب وأضافها إلى ضمير الغائب، ومن المعلوم أنّ التنكير يفيد العموم، فعمَّ المعلوم وغير المعلوم، الظاهر وغير الظاهر، المعروف والمكني، الحقيقة والمجاز. إذ إنَّ البيوت

(١٤) شرح الألفية، ابن الناظم: ١٢٢.

(١٥) البحر المحيط لأبي حيان: ٢/ ٢٢١. وينظر التحرير والتنوير المعروف بتفسير ابن عاشور(١٣٩٣هـ): ٢٥/ ١٦٦.

(١٦) الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل: ١/ ٢٦٢.

معلومة معَرَّفة بأل، لكنّ الأبواب غير معلومة، ولامعروفة، وللدلالة على الإتيان الصحيح فإن المراد: أبوابها التي يسمح لكم بدخولها وإتيانها، وهذه هي دلالة النصّ؛ لأنّ هناك أبواباً لايُسمح لكم بدخولها، وهناك أبوابٌ مغلقة لا يمكن الدخول منها، وهو مفهوم النصّ فأفاد الضمير النسبة، والتعيين والتخصيص، ولعلنا ندرك أن للبيت أبواباً منها مداخل للغرباء، و مداخل للضيوف من الأقارب، ومنها مداخل للخدم، وأخرى للغرف، وغيرها للمطبخ، وأخرى للنساء، فهي متعددة وهناك خصوصية في دخول كل منها، والهاء والألف حددتا ما لم يتحدد بأل التعريف؛ لأنّه لو لم يُرِد التعيين لأتى بالاسم الظاهر، المعرّف بأل (الأبواب)، أو المعرَّف بالإضافة إلى الاسم الظاهر المعرفة، في نحو (أبواب البيوت)، فـ (الأبواب) لا تحديد فيها، و(أبواب البيوت) فيها عموم مطلق لأن «الجمع إذا عُرِّف بـ(أل) حينئذٍ أفاد العموم والاستغراق، وكذلك إذا أُضِيف إلى المعرفة حينئذٍ نقول: يفيد العموم»[١٧]. في حين تبين من إضافة الضمير إرادة التعريف والتحديد لا التنكير، «وإذا قُرِن جمع القِلَّة بـ: (أل) التي للاستغراق، أو أُضِيف إلى ما يدلُّ على الكثرة، يعني: ما تدلُّ الإضافة إليه على الكثرة وهو المعرفة مفردةً أو جمعاً، لأنَّ الإضافة إلى المعرفة تعم ما لم توجد قرينة تخصيص»[١٨]، من هنا نجد الضمير أفاد توسعاً وتحديداً في الوقت نفسه، أما دلالته على التوسع فهو أنه يحتمل أن لكل بيت باب واحد، أي: أبواباً للبيوت، ويحتمل في الوقت نفسه أكثر من باب لكل بيت، أي: أبواباً للبيت الواحد. وفي قوله تعالى: ﴿أَبْوَٰبِهَا﴾ الصيغة تحتمل أموراً، منها أنّ الهاء دلّت مع دلالة المدَّين الطبيعيين لصيغة أفعال؛ على الاتساع في تنوع الطُرق بتعدد الأبواب، ومع أنّ هذه الطرق متعددة إلاّ أنّها محددة بالسياق نفسه، فسارت دلالة التخصيص بالضمير

(١٧) شرح الالفية، ابن الناظم: ١٢٣.
(١٨) نفسه: ١٢٣.

إلى الإفهام لا الإبهام، وإلى التعريف لا التنكير، وإلى التحديد بالألف عَوداً إلى المؤنث، فأفاد بـ(أبوابها) الأبواب المعلومة المعهودة للبيوت، والقضايا المعلومة المعهودة بين الناس، وأفادَ مشروعية الطرق والوسائل جميعها إنْ ارتبطت بأبواب مخصوصة؛ إذ المراد أبواباً بعينها، ففي بيان الجزء الدلالة على توسع الأجزاء وتعددها، وهي إفادة ضمنية؛ لأنّ في استعمال الضمير اقتصاداً في النطق، وهذا يتماشى مع دلالة المجاز والاستعارة المرادَين في هذا الأسلوب، فكما أنّ التوسع جاء من الإضافة إلى الضمير (ها)، فإنّ التحديد جاء أيضاً من الإضافة إلى الضمير (ها).

ومن الاتساع أننا نجد في بناء (أبواب) دلالة منتهى العموم والشمول حاضرة في النكرة للدلالة على أفراد غير معدودين، فصيغة (أفعال) كما يقول النحاة: هي جمع تكسير للدلالة على القلة ما لم تُضَف؛ فإنها حينئذ تفيد الكثرة، ومن هنا فإذا كان بناء (بيوت) على فُعول وهو بناء كثرة فكيف تكون الأبواب على جمع القلة، إذ المعقول أن تكون الأبواب أكثر من البيوت، فقد يكون للبيت أكثر من باب، وهذا مسوغ آخر للإضافة إلى الضمير (أبوابها).

ومن الاتساع أن (أبواب البيوت) لم تكن مقصودة لذاتها في سياق النص، وإلا لَقيل: (ائتوا البيوت من أبواب البيوت)، ولشَمَل الكلامُ أبواب البيوت كلها، وزال التخصص، لكنه أتى بـ (أبواب) مضافةً إلى الضمير للدلالة على التخصيص بأبواب معينة محددة، سواء أكانت حسية أم معنوية، معهودة وغير معهودة، ويدخل في دلالة التخصص حينها أنّ إتيان أية مسالة ينبغي أن يكون من طريق صحيحة ليس فيها مخالفة.

ومثلها في قوله تعالى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَتۡلُونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ رَبِّكُمۡ وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنۡ حَقَّتۡ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٧١ قِيلَ ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ ٧٢ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا

جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴾ [سورة الزمر: ٧١-٧٣].

تقدم في سورة البقرة قوله تعالى: ﴿ مِنۡ أَبۡوَٰبِهَا ﴾[١٩]، فقد نَكَّر الأبواب وأضاف إليها (ها) لدلالة التخصيص، أي: ائتوا من أبوابها المخصَّصة، وفي هذا الموضع قال تعالى: ﴿ فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا ﴾، أي: أبواب جهنم، المخصصة للكافرين، و(وفُتحت أبوابها)، أي: أبواب الجنة، المخصصة للمتقين. إنّ تنكير الأبواب يدلل على توافر أبوابٍ كثيرة في المَوْقِعَين (الجنة و النار)، أبواباً متعددة منها هذه الأبواب المقصودة المخصوصة التي يُساق إليها الكافر، أو التي يساق إليها المؤمن المتقي، فهناك أبواب للظالمين، وأخرى للمنافقين، وللمشركين، والطّاغين والمُسرفين والمُطففين وغيرهم كلٌ بصفته، وفي جهنم منازل ولكلّ منزلة أبوابها على عدد الزُّمر، وكذا الجنة جِنانٌ بحسب مراتب أهلها، ولكلّ جنة أبوابها على عدد الزُمر، فظهر للمتأمل الفرق الدلالي بين قوله تعالى: ﴿ ٱلۡأَبۡوَٰبُ ﴾[سورة ص: ٥٠]، و﴿ أَبۡوَٰبِهَا ﴾[سورة البقرة: ١٨٩] و [سورة الزمر: ٧١]، و﴿ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ ﴾[سورة الزمر: ٧٢]، واتّسع المعنى في دلالة (أبوابها)، فاستعملَ الكفر وهو عموم مطلق في كل مخالفة وستر للحقيقة، فلمّا اعترفوا بذنوبهم، وتوزَّعوا تحت مسميات وصفات هي جزيئات تحت ذلك العموم؛ حقَّت كلمة العذاب عليهم، فأزال التحديد والتخصيص، واستبدل الضمير بالاسم الظاهر فقال: (قِيل ادخلوا أبواب جهنم) للدلالة على العموم، أي: ادخلوا أبواب جهنم مُشرَعةً جميعها من أي باب شئتم؛ لأنّ الكلام ليس على الجنة أو النار أو الأبواب، بل هو على فتح الأبواب، عندما تتهيأ النار لمن سيدخلها، أي: عندما تحين ساعة الموافاة. إذ ليس في جهنم أبواب مخصصة بفئة دون غيرها.

على العكس من ذلك مع أصحاب الجنة من زُمَر المتقين، إذ «يقول الحق جلّ جلاله: ﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ ﴾ مساق إعزاز وتشريف، بلا

(١٩) تقدم الكلام عليها في الصفحات/ ٣-٥.

إسراع ولا تكليف، إلى دار الكرامة والتعريف. يُساقون راكبين مبجَّلين، كما يجيء الوافدون إلى دار الملوك، يساقون زُمراً متفاوتين، بحسب تفاوت مراتبهم في الفضل، وعلو الطبقة، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ﴾، أي: ظَفرتُم،... ﴿فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾، وحذفَ الواو في وصف أهل النار؛ لأنّ أبواب جهنم لا تُفتح لهم حتى يَصِلوا إليها، وفي وقوفهم قبل فتحها مَذَلَّة لهم، كما هي حال السجون، بخلاف أهل الجنة، فإنّهم يجدونها مفتوحة، قال تعالى: ﴿مُفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلۡأَبۡوَٰبُ﴾[سورة ص: ٥٠]، كما هي حال منازل الأفراح والسرور»[٢٠]، وأضاف الأبواب إلى الضمير إشارة إلى الاختصاص والنسبة، أي: لتدخل كل فئة من الباب المخصص لها، وأهل الجنة لا يخافون فهم يعلمون أبوابهم ويتباهون بها؛ لأنها جزء من التكريم، بخلاف أهل النار الخائفين المتهيبين المترددين من الدخول فلذلك تجد الأبواب كلها مشرعة لهم بلا تحديد. من هنا نفهم دلالة الإخبار في الخوف من دخول المجهول مع الكافرين، ودلالة الاختيار في الرغبة بدخول المعلوم مع المؤمنين.

ومن الاتساع تأمل ألفاظ القرآن في أهل النار:

جاؤوها –فتحت أبوابها –وقال لهم خزنتها –قيل ادخلوا أبواب جهنم، تجد التوافق والتشاكل بتكرار الضمير (ها) مع الكلمات خلا (أبواب جهنم) أما ألفاظه في أهل الجنة:

جاؤوها –وفتحت أبوابها –وقال لهم خزنتها –سلامٌ عليكم طبتم فادخلوها فتجد التوافق والتشاكل اللفظي في السياق القرآني بتكرار استعمال الضمير (ها) في الكلمات كلّها مع مَزيّة إضافة الضمير الرابع في (ادخلوها)، الأمر الذي حُرِمَ منه الكافرون؛ فجاء بضمير التحديد ودلالة التخصيص؛ لأنّ المتّقين مخصوصون بها، فهم تَملَّكوها بتقواهم، ومنزلتهم مخصوصة، وأبوابهم معلومة، يدخلون في

(٢٠) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد، المعروف بتفسير ابن عجيبة، أحمد بن مهدي بن المهدي بن عجيبة (١٢٢٤هـ) (١٨٠٩م): ٥/ ٣٤٤.

الجنة مطمئنين بلا تردد عند الأبواب، أمّا الكافرون وهم عموم تندرج تحته فروع كثيرة، فقد خصَّصها بهم، وخصَّ بها أبوابها، وخصَّ بها خزنتها، ثم عمم عند الدخول بالأبواب كلها من غير تخصيص؛ لأنهم يهابون الدخول، ويترددون بين الأبواب محاولة منهم في الفرار، فجاء الرد؛ قيل ادخلوا أبواب جهنم غير محددين بباب. فتأمل عظمة هذا النص الخالد العظيم.

تأمل من الاتساع أيضاً قولَ خَزَنة الجنة لأهلها: أدخلوها، وقول خزنة النار لأهلها: أدخلوا أبواب جهنم، مرةً أخرى، تجد تحته سراً لطيفاً آخر، ومعنى بديعاً، لا يخفى على المتأمل؛ وهو أنّها لما كانت دار العقوبة وأبوابها أفظع شيء، وأشدّه حراً، وأعظمه مما يَستقبل فيها الداخل من العذاب ما هو أشدّ منها، ويدنو من الغمّ والخِزي والحُزن والكَرْب بدخول الأبواب؛ قيل ادخلوا أبواب جهنم، فأضاف إلى الاسم صَغاراً لهم وإذلالاً وخزياً ولم يُضِف إلى الضمير كما فعل مع أهل الجنة، إذ في الإضافة إلى الضمير نوع من المباهاة، ثم قيل لهم لا يقتصر الأمر معكم على مجرد دخول الأبواب الفظيعة، ولكن وراءها الخلود في النار، وأما الجنة فهي دار الكرامة، والمنزل الذي أعده الله لأوليائه، فَبُشِّروا من أول وهلة بالدخول إلى المقاعد والمنازل والخلود فيها. فتأمل قوله سبحانه: ﴿جَنَّٰتِ عَدۡنٖ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلۡأَبۡوَٰبُ ۝٥٠ مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدۡعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٖ كَثِيرَةٖ وَشَرَابٖ﴾ [سورة ص: ٥٠-٥١]، كيف تجد تحته معنى بديعاً، وهو أنهم إذا دخلوا الجنة لم تغلق أبوابها عليهم بل تبقى مفتحة كما هي؛ لأن الله تعالى أراد لهم الطمأنينة فجعلها مفتحة لهم الأبواب، وأما النار فإذا دخلها أهلها أغلقت عليهم أبوابها؛ لإخافتهم، وإدخال الرعب في قلوبهم؛ لأنّك إذا أدخلتَ أحداً حجرةً وأغلقتَ عليه بابها وسط ظلام دامس يخاف ويضطرب، قال تعالى: ﴿إِنَّهَا عَلَيۡهِم مُّؤۡصَدَةٞ﴾ [سورة الهمزة: ٨]، أي: مُطْبَقة، ومنه سمي الباب وصيداً، وهي مؤصدة في عَمَدٍ مُمددة، قد جُعلت العُمُد مُمسكة بـ الأبواب من خلفها كالحجر العظيم الذي يجعل خلف الباب[٢١].

(٢١) ينظر حادى الأرواح: ٨٨-٩٤، و الكشف

٢. دلالات نوعية في إضافة الضمير(ها) لكلمة (أقفال):

نبحث هنا عن دلالة الضمير (ها) مضافاً إلى كلمة (أقفال)، في قوله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ [سورة محمد: ٢٤].

قيل: في دلالة السياق أنها استعارة للذين ذهب منهم الإيمان، وأم منقطعة بمعنى بل، والهمزة للتقرير، ولا يستحيل عليهم بأن قلوبهم مقفلة لا يصل إليها ذكر، ولم يحتج إلى تعريف القلوب؛ لأنه معلوم أنها قلوب من ذُكِر، ولا حاجة إلى تقدير صفة محذوفة، أي أم على قلوب أقفالها قاسية، وأضاف الأقفال إليها، أي الأقفال المختصة، أو هي أقفال الكفر التي استغلقت، فلا تفتح[٢٢].

فإن قلت: لِمَ نُكِّرَتْ القلوب وأضيفت الأقفال إليها. قلتُ: أما التنكير ففيه وجهان: أن يراد على قلوب قاسية مبهم أمرها في ذلك، وهذا لتهويل حالها، وتفظيع شأنها، بإبهام أمرها في الفساد والجهالة، كأنه قيل: قلوب مُنكرة لا يُعرف حالها، ولا يُقادر قدرُها في القسوة. أو يراد على بعض القلوب: وهي قلوب المنافقين[٢٣]، وإضافة الأقفال إليها للدلالة على اختصاصها بها، ومناسبتها لها، غير مجانِسَةٍ لسائر الأقفال المعهودة[٢٤] «لقد أقفَل الحقُّ على قلوب الكفار، فلا يدخلها زواجر التنبيه، ولا تنبسط عليها شعاعُ العلم، ولا يحصل فيهم الخطابُ، والبابُ إذا كان مُقفلاً، فكما لا يدخل فيه شيء لا يخرج ما فيه، كذلك هي قلوب الكفار مقفلة؛ فلا الكفر الذي فيها يخرج، ولا الإيمان الذي يُدعَوْن إليه يدخل في قلوبهم. وفي الحديث: (إذا أراد الله بعبد خيراً فتح

=والبيان لابي إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي النيسابوري: ٨/ ٢٥٧، وإرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم لابي السعود العمادي: ٦/ ٢٣، و تفسير القرآن العظيم لابن كثير: ٨/ ٤٨١، وروح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني لشهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي: ٣٠/ ٢٩٦..

(٢٢) ينظر تفسير البحر المحيط ١٠/ ٨٦.

(٢٣) ينظر الكشاف للزمخشري: ٦/ ٣٣٢.

(٢٤) أسرار التنزيل وأنوار التأويل، الرازي: ٥/ ٢٠٠. وينظر مثله في إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم لأبي السعود العمادي: ٦/ ١٥٩. و روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني لشهاب الدين الآلوسي: ٩/ ١٥٩.

له قُفل قلبه، وجعل فيه اليقين)»[٢٥]، وكل هذا من الاتساع في المعنى.

وقيل: إن «تنكير (قلوب) للتنويع أو التبعيض، والمعنى: بل بعض القلوب عليها أقفال. وهذا من التعريض بأن قلوبهم من هذا النوع؛ لأنّ إثبات هذا النوع من القلوب في أثناء التعجيب مع عدم تدبر هؤلاء القرآن، يدل بدلالة الالتزام أن قلوب هؤلاء من هذا النوع من القلوب ذوات الأقفال، فكون قلوبهم من هذا النوع مستفاداً من الإضراب الانتقالي في حكاية أحوالهم، ...وإضافة (أقفال) إلى ضمير(قلوب) نظمٌ بديع أشار إلى اختصاص الأقفال بتلك القلوب، أي ملازمتها لها فدل على أنها قاسية»[٢٦].

وهذا أيضاً من الاتساع في المعنى دل عليه اضافة الضمير.

ثمّ «تأمل تنكير القلب وتعريف الأقفال فإن تنكير القلوب يتضمن إرادة قلوب هؤلاء وقلوب من هم بهذه الصفة، وهذا من الاتساع في الدلالة، ولو قال: (أم على القلوب أقفالها)، لم تدخل قلوب غيرهم في الجملة، وفي قوله: (أقفالها) بالتعريف نوع تأكيد، فإنه لو قال (أقفال)؛ لذهب الوهم إلى ما يعرف بهذا الاسم،

(٢٥) ينظر البحر المديد، لابن عجيبة: ٦/ ٦٧.
وفي كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال: ١١/ ٩٦. عن أبي ذر رضي الله عنه: (إذا أراد الله بعبد خيرا فتح له قفل قلبه، وجعل فيه اليقين والصدق، وجعل قلبه واعيا لما سلك فيه، وجعل قلبه سليما ولسانه صادقا وخليقته مستقيمة، وجعل أذنه سميعة وعينه بصيرة). وفي جامع الأحاديث، للسيوطي: ٢/ ٢٦٧: (إِذَا أَرَادَ اللهُ بِعَبْدٍ خَيْرًا فتح له قُفْلَ قلبِهِ وجعل فيه اليقينَ والصدقَ وجعل قلبَه واعيا لما سلك فيه وجعل قلبَه سليما ولسانَه صادقا وخَلِيقَتَه مستقيمةً وجعل أُذُنَه سميعةً وعينَه بصيرةً (أبو الشيخ عن أبى ذر) وذكرَ: أخرجه الديلمى (١/ ١/ ٩٤) من طريق أبى الشيخ كما فى المداوى (١/ ٢٨٣، رقم ٣٨٧) والسلسلة الضعيفة (٥/ ٢٥٣، رقم ٢٢٢٧)، والحديث موضوع كما فى المداوى والسلسلة الضعيفة. ومن غريب الحديث: «فتح له قُفْل قلبه»: أزال عن قلبه الحجب التى تمنع دخول الإيمان ورسوخ اليقين. «واعيا»: حافظا. «وخليقته»: سجيته وطبيعته مستقيمة معتدلة متوسطة. «وجعل أذنه سميعة»: أى مستمعة لما ينفعه فى الآخرة مقبلة على ما يسمعه من ذكر الله. قال المناوي في الفيض «١/ ٢٦٠»: وفيه سعيد بن إبراهيم، وقال الذهبي: مجهول.

(٢٦) التحرير والتنوير: ٢٦/ ٩٦.

فلما أضافها إلى القلوب عُلِمَ أن المراد بها ما هو للقلب بمنزلة القفل للباب، فكأنه أراد أقفالها المختصة بها التي لا تكون لغيرها»[٢٧] ويدلل على هذا التخصيص أن القرآن الكريم عالج أمراض قلوب الكافرين بأقفالٍ مُعَدَّةٍ لها، فكان العلاج أقفالاً لقلوبهم كلّ بحسب نوعه عقوبة لهم، ذكر منها:

١. الزَّيْغ ﴿ فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴾ [سورة الصف: ٥].

٢. صَرْف القلوب ﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ نَّظَرَ بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٍ هَلۡ يَرَىٰكُم مِّنۡ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُواْۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَفۡقَهُونَ ﴾ [سورة التوبة: ١٢٧].

٣. مَرَض القلوب ﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضٗاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡذِبُونَ ﴾[سورة البقرة: ١٠].

٤. قسوة القلوب ﴿ فَبِمَا نَقۡضِهِم مِّيثَٰقَهُمۡ لَعَنَّٰهُمۡ وَجَعَلۡنَا قُلُوبَهُمۡ قَٰسِيَةٗۖ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦۚ ﴾[سورة المائدة: ١٣].

٥. جعل الأكنَّة على القلوب ﴿ إِنَّا جَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً أَن يَفۡقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٗا ﴾ [سورة الكهف: ٥٧].

٦. الختم على القلوب ﴿ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ ﴾ [سورة البقرة: ٧].

٧. قَفْل القلوب ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ ﴾ [سورة محمد: ٢٤].

٨. الرَيْن على القلوب ﴿ كَلَّاۖ بَلۡۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴾ [سورة المطففين: ١٤].

٩. الطَبْع على القلوب، في أربعة مواضع:

أ- ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُمۡ ﴾[سورة محمد: ١٦].

ب- ﴿ وَنَطۡبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ﴾[سورة الأعراف: ١٠٠].

ت- ﴿ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾[سورة التوبة: ٩٣].

ث- ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ ﴾[سورة النحل: ١٠٨].

لنتأمل في قوله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ

(٢٧) ينظر شفاء العليل: ٩٥.

﴿أَلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [سورة محمد: ٢٤] فقد نَكَّرَ القلوب والاقفال وأضاف الأقفال إلى الضمير توسعاً في الدلالة، ثمّ عرَّفها بما يخصصها، ففي قولنا: (أم على قلوبهم الأقفال؟.) الكلام على الأقفال المعلومة فقط، وفي قولنا: (أم على قلوبهم أقفال القلوب) الكلام على القلوب، وفي قولنا: (أَم على قلوبٍ أقفال القلوب) أو(أقفال تلك القلوب)، الكلام على القلوب كلّها بدلالة التنكير في قلوبٍ الأولى، والتنكير يفيد التنويع، فالقلوب متنوعة، منها هذه القلوب التي عليها الأقفال، ومنها قلوب غيرها، أمّا في قوله تعالى: (أقفالها) فالكلام على الأقفال، وهذا يعني أقفالاً مختصّة بها ليست كأقفال الذنوب أو الكبائر أو غيرها مما تقدم، إذ لكل فئة أقفال تختص بها بحسب ما تقتضيه حكمة الله تعالى، وقد تحددت أقفال هذا النوع بإضافة الضمير؛ لأنّه كناية عن شيء معهود بالنسبة، وليس بالاستغراق الذي يناسبه مجيء الأسم، وفيه أيضاً الكلام على عملية القفل، أي القلوب التي أُقفِلَتْ، وهذا التوسع مُتَأَتٍّ من دلالة التخصيص بالضمير بعد إضافة النكرة، ذلك أن القلوب لكل منها قفل بحسب حالته ونوعه وذنبه ومعصيته، ولقد دلّ السياق القرآني على نوعٍ واحدٍ بالقصد، ودلّ على الأنواع الأخرى بالتَّرك، والقصد هنا يتحقق بأقفال عدم تدبر القرآن من الملعونين الذين أصَمَّهم الله وأعمى أبصارهم من أهل النفاق. بدليل ذكره تعالى أنواعاً أُخَر من الأقفال، وقد تقدمت.

يتحقق أيضاً في هذا النص ما أشير إليه في الآيتين السابقتين وهو أن القلوب جمع كثرة على (فعول) والأقفال جمع قلة على (أفعال)، لكن إضافة الأقفال إلى القلوب دلت على الكثرة؛ لأن المحتمل أن تكون الأقفال أكثر من القلوب، فقد يكون لكل قلب أكثر من قفل، وذلك بحسب تنوُّع الآثام والذنوب.

المبحث الثاني

دلالات عددية وكمية

أولاً: دلالات عددية في الكلمات (أمثال و ألوان و أكمام).

١. إضافة الضمير (ها) لكلمة (أمثال).

قيل في قوله تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [سورة الأنعام: ١٦٠]. أي: «له عشر حسنات أمثال حسنته التي جاء بها»[٢٨]، أو «له عشر حسنات أمثالها؛ فحُذِفَتْ الحسنات وأُقيمَت الأمثال التي هي صفتها مقامها؛ جمع مِثل»[٢٩]، وهذا كلام في غاية الدقة والروعة، تقديره: عشر حسنات أمثالها في الحسن، «كمن أهدى إلى سلطان عنقوداً فإنّه يُعطيه ما يليق بسلطَنته، لا قيمة العنقود»[٣٠]، ونحن حين نتلمس شيئاً من أسرار البيان القرآني، ومكنون أسرار اللغة، ما تُسَرُّ به خواطرنا، وتُسعَد به قلوبنا، نتلمس التوسع الذي لاشيء قبله ولا بعده، توسعاً في العطاء لكريم لا يُدانيه في الكرم أحد. إذ لم يَرِد السياق (بعشرِ مِثلها) ولا (عَشرٌ أمثالها) بل (عَشرُ أمثالها)، وهذا هو التوسع العددي غير المتناهي بعينه. عشر مراتٍ من أمثالها، أمثال غير محدودة ولا معدود. فإذا كانت الأمثال ألف مثل كان له عشرة آلاف مثل، وبما أن الأمثال غير محددة فالعدد الكلي لا حدود له أيضاً، وسيكون له عشر مرات مليارات وبلايين الأمثال، وبما أن الأمثال غير محددة فهذا يعني أن مضاعف العَشَرة رقم لا ينتهي أمام حسنةٍ واحدة، فسبحان رب العرش عما يصفون.

إن إلصاق الضمير (ها) بصيغة أفعال يظهر حُسناً آخر في هذا السياق القراني، فهو يحثُّ على العناية بالحسنة كماً ونوعاً؛ لأن فخامة المكافأة مرتبطة بفخامة الحسنة، وهذا من التوسع في الدلالة في قوله (أمثالها) فإن زاد العبد، زاد الرّب، وإن عاد العبد، عاد الرّب، وليس لأحدٍ بعد هذا أن يقول: إن صيغة أفعال اختصت بجمع القلة، ويطلق الكلام إطلاقاً للكلام من غير قيود، بعد أن تبين أثر هذه الإضافات والملحقات ومقام الحال في دلالة الألفاظ والسياق.

٢. إضافة الضمير (ها) لكلمة (ألوان).

«الألوان: جمع لون. وهو كيفية

(٢٨) جامع البيان في تأويل القرآن، للطبري: ١٢/ ٢٧٥.

(٢٩) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ٧/ ١٥٠.

(٣٠) مختصر تفسير البغوي: ٣/ ٧٨.

لسطوح الأجسام مدركة بالبصر تنشأ من امتزاج بعض العناصر بالسطح بأصل الخِلقة أو بصبغها بعنصر ذي لون معروف، وتنشأ من اختلاط عنصرين فأكثر ألوان غير متناهية... ونِيط الاستدلال باختلاف الألوان بوصف التذكر؛ لأنه استدلال يحصل بمجرد تذكر الألوان المختلفة إذ هي مشهورة»[٣١]. هكذا قال ابن عاشور في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَٰلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ [سورة فاطر: ٢٧ –٢٨].

«والظاهر أن الألوان أريد بها ما يتبادر إليه الذهن من الحمرة والصفرة والخضرة والسواد وغير ذلك، والألوان بهذا المعنى أوسع وأكثر من الألوان بمعنى الأصباغ..، إنّ تخصيص الفعل بهيئته وألوانه من أدلة قصد الفاعل وبرهانه. فإتقان الفعل وإحكامه شواهد الصنع وإعلامه. وكذلك أيضاً الناس والدواب والأنعام، بل جميع المخلوقات، متجانس الأعيان، مختلف الصفات، وهو دليل ثبوت مُنشئها بنعت الجلال»[٣٢].

وقيل: «يحتمل معنيين، أحدهما: أنَّ البياضَ والحمرةَ يتفاوتان بالشدة والضعفِ فرُبَّ أبيضَ أشدُّ من أبيضَ، وأحمرَ أشدُّ مِنْ أحمرَ، فنفسُ البياضِ مختلفٌ، وكذلك الحمرةُ، فلذلك جَمَع ألوانها، فيكونُ من باب المُشَكَّل. الثاني: أن الجُدَدَ كلَّها على لونين: بياضٍ وحُمْرَةٍ، فالبياضُ والحُمْرَةُ وإنْ كانا لونَيْن إلاَّ أنهما جُمِعا باعتبارِ محالِّها»[٣٣]، وهذا من الاتساع في الدلالة.

ومن الاتساع أنّ السياق القراني يحتمل ألوان الثمرات المختلفة، وربما ألوان مختلفةٌ من الثمرات. وبما أن الكلام على الألوان فقد أخفى الثمرات وكنّى بالضمير، صحيح أن الثمرات متنوعة وهذا رائعٌ،

(٣١) البحر المديد: ٥/ ١٧٩. وينظر التحرير والتنوير: ١٣/ ٩٤.

(٣٢) التحرير والتنوير: ١٣/ ٩٤.

(٣٣) الدر المصون في علم الكتاب المكنون: ١/ ٤٢٤٦.

لكن الأروع إنما هو في اختلاف الألوان، والقوة في تنوعها، وتعددها، ووجود الضمير زاد السياق القراني قوة لفظية، وقوة معنوية في إشارة إلى تفرد الألوان وغلبتها، من هنا تتسع دلالة الألوان متعددة في كل صنف من أصناف الثمرات، إذ لا تتشابه ألوان الصنف الواحد، ولا النوع الواحد، وإن كان في شجرة واحدة. وكذا الأمر مع الجبال مختلف ألوان الأبيض، مختلف ألوان الأحمر، والناس والدواب والأنعام، مختلف ألوان كل صنف، بل كل فرد، جينات وخلايا متنوعة متلونة مختلفة لاتتشابه وإن اقترب الشبه إلا أن التدقيق والتمحيص يُظهر فرقاً، ويُظهر تنوعاً، ويُظهر اختلافا. إنه توسعٌ عددي في الدلالة لا حدود له، تأتى من دلالة الضمير على جزيئات الأجزاء، فسبحان رب العرش عما يصفون.

٣. إضافة الضمير (ها) لكلمة (أكمام).

في قوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِۚ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦۚ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى قَالُوٓاْ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ﴾[سورة فصلت: ٤٧].

ضمير (أكمامها) راجع إلى الثمرات، والأكمام: جمع كِمّ، بكسر الكاف وتشديد الميم، وهو وعاء الثمر، وهو الجف الذي يخرج من النخلة محتويا على طلع الثمر[٣٤].

فالأكمام: هي وعاء الزهر وطلعه الذي تتولد عنه الثمرات، ودلالة السياق القراني على الاستغراق والعموم بادية في أكثر من أداة (ما الموصولة الدالة على الشمول، ومِن المستغرقة للجنس، ودلالة السياق على الاتساع والشمول والاستغراق بدلالة نفي الضدّ بقوله تعالى: ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ﴾، يضاف إليها دلالة الضمير(ها) للمبالغة في الاستقصاء، والاتساع العددي، كل ذلك يوحي بالشمول والكثرة التي لا يُحصيها إلا خالقها، ولو أن السياق تغير فكان (وما تخرج من ثمراتٍ من أكمام الثمرات) لكان تعريف الثمرات محدِّداً عددياً، ويكون خصَّ الأكمام بالثمرات المعلومة عند

(٣٤) تفسير ابن عاشور: ٢٤/ ٢٣٧، وينظر لباب التأويل في معاني التنزيل لعلاء الدين علي بن الشيحي أبو الحسن: ٤/ ٩١.

الإضافة اليها، فلمّا كانت الثمرات نكرة فإنها شملت كل أنواع الأكمام لكل أنواع الثمرات، وشمِلَت مليارات وبليارات حبات الطلع الموجودة في وِعاء الزهر، فـ (مِن) مع النكرة تأتي لإستغراق الجنس أي ما يخرج من جنس ثمرات كائن ما يكون من أكمام الثمرات كلها، كيفما تكون، وأينما تكون، وهنا توافق بين الخارج وبين ما يخرج منه فهما متساويان متعادلان.

إذن الكلّ مع الكلّ فهو استغراق للأصناف في النباتات كلّها. كلّ صنف بصنفه، كلّ نوع بنوعه، وهو تعالى يَعلَمُه وقت خروجه لا متقدماً ولا متأخراً، وللضمير هنا مزية أخرى، فقوله: أكمامها يشمل الكلّ: الثمرات، والأكمام، وخروجها من أكمامها، والكيف، والكم، والشكل، على مرّ الزمان، وتباين المكان، إذ في دلالة استعمال الضمير توسع، بخلاف قولنا: (ما تخرج من ثمراتٍ من الأكمام)، فالكلام حينها على الأكمام، وقولنا: (ما تخرج من ثمرات من أكمام الثمرات) فالكلام على الثمرات. فتأمل كيف أن الساعة غيب غائر في ضمير المجهول، والثمرات في أكمامها سر غير منظور، والحَمل في الأرحام غيبٌ كذلك مستور، وكلها في علم الله، وعلم الله بها محيط. يتتبع الثمرات في أكمامها، والأجنة في أرحامها. في جنبات الأرض كلها يرقَب الأكمام التي لا تحصى، ويتصور الأجنة التي لا يحصرها خيال! وترتسم في الضمير صورة لعلم الله بقدر ما يطيق الضمير البشري أن يتصور من الحقيقة التي ليس لها حدود. هذا التوسع العظيم في الدلالة تأتّى من دلالة التخصيص الحاصلة من إضافة الضمير (ها) الى اللفظ في السياق القراني.

ثانياً: دلالات كمية في الكلمات (أشعار و أوبار و أصواف و أقوات).

١. إضافة الضمير (ها) للكلمات: (أشعار و أوبار و أصواف).

لم نجد من المفسرين من توقف عند ألالفاظ (أصوافها، وأوبارها، وأشعارها)، ناظراً إلى الصيغة (أفعال) أو إضافة الضمير (ها) إليها، في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمۡ سَكَنٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ بُيُوتٗا تَسۡتَخِفُّونَهَا يَوۡمَ ظَعۡنِكُمۡ وَيَوۡمَ إِقَامَتِكُمۡ وَمِنۡ أَصۡوَافِهَا

﴿وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾ [سورة النحل: ٨٠].

فما دلالة الصيغة؟. وما دلالة الإضافة في هذه الآية المباركة؟. وما الفرق لو قال: (أصواف الأنعام، وأوبار الإبل، وأشعار الماعز)، أو قال: (الأصواف، والأوبار، والأشعار)؟. عندها نتوقف لإدراك المراد، وهو بيان طبيعة الانتفاع من الأنعام، (من جلودها وأصوافها، وأوبارها، وأشعارها) لقد توسع في السياق القراني ليشمل الأنعام، ويشمل ما يُنتفع به منها، ويشمل الانتفاع، ويشمل الأنواع، فصار المراد من هذا السياق الاتساع في هذه الأمور جمعاء، فأصوافها وأوبارها وأشعارها، ليست نوعاً واحداً، ولا لوناً واحداً، ولا جنساً واحداً، ولا تتوافق رِقةً، ولا غِلظةً، ولا خشونةً، ولا نعومةً، ولا تسرُّحاً ولا تجعيداً، ولا قِصَراً، ولا طُولاً، ولا قوّةً، ولا ضَعفاً، ولا دِفئاً، ولا حِمايةً، ولا ثَباتاً، ولا تساقطاً، ولا صَنعةً، ولا خِفَّةً، ولا ثِقَلاً، ولا زَهاءً، ولا جمالاً، ولا بهاءً، ولا قُبحاً، ولا صِحَّة، ولا إمراضاً، ولا توافقاً مع بيئةٍ خِلافَ غيرها، ولا لأنثى مثلما للذكر، ولا لصغيرة مثلما للكبيرة، ولا للسمينة مثلما للهزيلة، ولا لبنت الجبل مثلما لبنت السهل والوادي. هكذا تتنوع إلى أنواعٍ لا يحدّها حدّ، ولا يضبطها ضابط.

هذا من جهة التوسع في الدلالة. أضف إلى هذا أن إضافة هذه الألفاظ الى الضمير دلت على أنواع مخصوصة مناسبة لأجناس بني البشر كل على حَسب ذوقه وعادته ومراده وبيئته، فتأمل ملياً في هذا الكلام، فإن تحته أسراراً عجيبة لمن فتح الله له.

٢. إضافة الضمير (ها) لكلمة (أقوات).

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ۝٩ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ﴾ [سورة فصلت: ٩-١٠] قدّر ذلك على قدر مسائلهم، أي يعلم أنه لا يكون من مسائلهم شيء إلا شيء قد علمه قبل أن يكون، وقدر فيها أقواتها سواء لسائليها على ما بهم إليه الحاجة، وعلى

ما يصلحهم[٣٥]. وفيها أقوال:

أ. أرزاق ساكنيها ومعايشهم، وأضافهما إلى الأرض من حيث هي فيها وعنها برزت.

ب. أقواتها من الجبال والأنهار والأشجار والصخور والمعادن، والأشياء التي بها قوام الأرض ومصالحها.

ج. أقواتها من المطر والمياه.

د. خصائصها التي قسّمها في البلاد مما خص به كل إقليم، فيحتاج بعضها إلى بعض في التقوّت من الملابس والمطاعم والنبات[٣٦].

من هنا نعلم أنه تعالى خلق في الأرض القوى التي تنشأ منها الأقوات، وخلق أصول أجناس الأقوات وأنواعها من الحب للحبوب، والكلأ والكمأة، والنَوى للثمار، والحرارة التي يتأثر بها تولد الحيوان من الدواب والطير، وما يتولد منه الحيتان ودواب البحار والأنهار. ومن التقدير: تقدير كل نوع بما يصلح له من الأوقات من حر أو برد أو اعتدال.

إنَّ جمع الأقوات مضافاً إلى ضمير الأرض يفيد العموم، أي: جميع أقواتها وعمومه، باعتبار تعدد المقتاتين، فللدواب أقوات، وللطير أقوات، وللوحوش أقوات، وللزواحف أقوات، وللحشرات أقوات، وجعل للإنسان جميع تلك الأقوات مما استطاب منها كما أفاده قوله تعالى ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ [سورة البقرة: ٢٩][٣٧]، ومما تولّدَ منها أيضاً، إذ يتولّد من الحشائش والنبات أصناف كثيرة ويتولّد من الحشرات ودواب الأرض أصناف كثيرة، ومن قوت الإنسان ما يقتات على القوت الموجود، فصارت أقوات من أقوات، إذ النبات يقتات والدواب تقتات والإنسان يقتات من كلّ ما يقتات، فهي أقوات غير محدودة وغير معدودة وغير منظورة.

وعلى هذا فالأقوات للأرض ولِما فيها، والمعنى أنّ الله عزَّ وجلَّ قدر لكل أرض حظَّها من المطر. وقيل: المراد من إضافة القُوت إلى الأرض كونها متولدة

(٣٥) ينظر معالم التنزيل، لأبي محمد الحسين بن مسعود البغوي (٥١٦ هـ): ٧/ ١٦٥.

(٣٦) ينظر البحر المحيط: ٩/ ٢٨٣.

(٣٧) ينظر التحرير والتنوير: ٢/ ٥٦.

في تلك الأرض وحادثة فيها؛ لأنّ النحاة قالوا: في حُسن الإضافة أدنى سبب، فالشيء قد يضاف إلى فاعله تارة، وإلى محله أخرى، فقوله تعالى: ﴿ وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا ﴾، أي: قدَّر الأقوات التي يختص حدوثها بها؛ وذلك لأنّه تعالى جعل كل بلدة معدناً لنوع آخر من الأشياء المطلوبة بمعنى أنّ أهل هذه البلدة يحتاجون إلى الأشياء المتولدة في ذلك البلد وبالعكس فصار هذا المعنى سبباً لرغبة الناس في التجارات واكتساب الأموال[٣٨].

من هنا يبدو أنّ الكلام على أقوات الأرض، كلّ الأرض بما فيها، وليس أقوات الإنسان فقط؛ لأنّ للأرض أقواتاً متعددة؛ منها مايصلح أن يكون قوتاً لنا، ومنها لايصلح، ففي قولنا: (أقوات الأرض) دلالة على أنّ المنفعة للأرض، أي: هي المستفيد منها، وفي قولنا: (الأقوات) يشمل الأقوات المعلومة فقط، لكن (أقواتها) فيه توسع في الدلالة ليشمل الجميع؛ القوت المعلوم وغير المعلوم، المودع فيها لها ولغيرها، أضف الى ذلك أن فيه إشارة الى أقوات المخلوقات والناس جميعا، فهذه السعة في الدلالة مؤداها من الضمير، وفي خلاف ما ورد تتلاشى هذه الدلالة في السياق القرآني والله اعلم باليقين.

المبحث الثالث

دلالات مكانية

دلالات مكانية في الكلمات (أطراف) و (أقطار) و (أرجاء).

١. إضافة الضمير (ها) لكلمة (أطراف).

قوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾ [سورة الرعد: ٤١].

للمفسرين في أطرافها أربعة تأويلات هي:

أ. الفتوح على المسلمين من بلاد المشركين، قاله ابن عباس والحسن البصري وقتادة.

ب. خراب الأرض بعد العمارة، قاله مجاهد.

ج. نقصان بركتها وتمحيق ثمرتها، قاله

(٣٨) ينظر: النكت والعيون، للماوردي: وإرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: ٦/ ٥٠، تفسير اللباب في علوم الكتاب، لأبي حفص سراج الدين النعماني: ١٤/ ٢٧.

الكلبي والشعبي.

د. موت فقهائها وخيارها، قاله ابن عباس[٣٩].

وعقّبَ ابن عاشور على الآية فقال: «أي: أعجبوا من عدم اهتدائهم إلى نقصان أرضهم من أطرافها، وأن ذلك من صنع الله تعالى بتوجيه عناية خاصة، لكونه غير جارٍ على مقتضى الغالب المعتاد، فمن تأمل عَلِمَ أنه من عجيب صنع الله تعالى. وإن كان المراد أرضا من الدنيا، أي مصيرها بيد عباد الله الصالحين كانت هذه الآية مسوقة لوعد المؤمنين بميراث الأرض التي لقوا فيها الأذى، وهي أرض مكة وما حولها، فتكون بشارة بصلاح حالهم في الدنيا بعد بشارتهم بحسن مآلهم في الآخرة»[٤٠].

إن سياق الجملة الفعلية يوحي بإمكانية الإكتفاء بالمفعول به من غير ذكر الجار والمجرور -أطرافها -لكن النص القرآني أكّدَ ذكر الأطراف، وفي ذاك إشارةٌ إلى أنّ النقص يصيب أطراف الأرض، فالكلام على أطراف الأرض لا على الأرض، في عملية نقص الحواشي والجهات، أي: نُنقص الأطراف لا نُنقص الأرض، أو ننقص الأرض نبدأ من أطرافها، أو ننقص أطراف الأرض اليابسة، أو ننقص أطراف الكرة الأرضية بما فيها اليابس والماء، فهي تتناقص وتضمحل، فالكلام يحتمل كل الأرض، ويحتمل جزءاً من الأرض، وذلك هو مدلول الضمير. فلولا الضمير لاحتمل معنىً واحداً فقط، وهو كل أطراف الأرض، والأرض ليس فيها طرف؛ لأنها كروية، لكن الأطراف فيها أطراف اليابس مع الماء، وربما يشير ذلك إلى أنّ البحار ستلتهم اليابسة، أو أنّ الكرة الأرضية تتطاير أطرافها وتتناثر وتصغر حتى تنتهي وتفنى، من هنا صار النقص في الكل وفي الجزء دليل التوسع في الأحداث وليس الحدث الواحد وبانت قصدية السياق القراني ظاهرة، في تعدّد الأطراف من جهة، وفي الاختصاص بأطرافٍ دون غيرها من جهةٍ أخرى، والله أعلم.

٢. إضافة الضمير (ها) لكلمة (أقطار).

في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ

(٣٩) النكت والعيون: ٢/ ٣١٩، والتحرير والتنوير: ١٧/ ٥٥، والدر المنثور في التأويل بالمأثور، السيوطي: ٦/ ٢٧.

(٤٠) التحرير والتنوير: ١٧/ ٥٥.

مِّنْهُمُ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ ۛ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ لَـَٔاتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا ﴾ [سورة الأحزاب: ١٣ -١٤]

«الأقطار: جمع قُطر -بضم القاف وسكون الطاء -وهو الناحية من المكان. وإضافة (أقطار) وهو جمع يفيد العموم، أي: من جوانب المدينة جميعها، وذلك أشد هجوم العدو على المدينة كقوله تعالى: ﴿ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ ﴾ [سورة الأحزاب: ١٠]. وأسند فعل {دُخِلَتْ} إلى المجهول؛ لظهور أنّ فاعل الدخول قوم غزاة.. . والضمير المستتر في {دُخِلَتْ} عائد على المدينة؛ لأنّ إضافة الأقطار يناسب المدن والمواطن ولا يناسب البيوت... فالمعنى لو كانت بيوتهم مختلة بالكلية دخلها كل من أراد الخبث والفساد»[٤١]، ويظهر من السياق للناظر أنّ إضافة أقطار إلى المدينة يخصصها بالمدينة، أي: ولو دُخِلَت عليهم من أقطار المدينة، وتعريفها بأل ظاهره أنَّ المراد التخصيص بالأقطار، أي: لو دُخِلَت عليهم من الأقطار، أما تعريفها بالضمير (أقطارها) ففيه العموم، وفيه الخصوص، وتبدو فيه دلالة الاتساع ظاهرة؛ لأنه يشمل أقطار الأرض، وأقطار المدينة، وأقطار بيوتهم، وأقطار قلوبهم، فالسياق القراني يحتمل كل واحد من هذه الأمور بدليل قوله تعالى في سورة الرحمن: ﴿ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ﴾ [سورة الرحمن: ٣٣]، فحدد، ولم يذكر الضمير بل ذكر الاسم الظاهر الذي يدل على استغراق الإضافة للمنسوب إليه، فصيغة (أفعال) هي التي أفادت توسعاً إضافياً في الدلالة، وجاء هذا التوسع في لفظة (أقطار) التي شملت ما تقدم من المعاني كلّها، وهذا النوع من التوسع يسمى التوسع في (اللفظ)، أمّا الاضافة للضمير فتفيد توسعاً إضافياً في الدلالة، وتفيد التخصيص في تحديد تلك الدلالة؛ لأنّ المراد بالأقطار دواخل المدن ومراكزها

(٤١) ينظر تفسير روح البيان، لإسماعيل مصطفى الإستانبولي: ٧/ ١١٥.

ومحاورها الرئيسة، ودواخل البيوت ومُستقر الطمأنينة فيها، ودواخل نفوسهم وقلوبهم ومواطن الارتجاف فيها، فصارت هذه المواطن كلها موطن الخلل ومدعاة للفزع، وتعددت عوامل الغزو بين غزو مادي بالجيوش، وغزوٍ معنوي يصيب النفوس، فصار الضمير دليل التوسع في الحدث ودليل التوسع في المكان، وبانَ الفضل في استعماله دلالة، والله تعالى أعلم.

٣. إضافة الضمير(ها) لكلمة (أرجاء).

قوله تعالى ﴿وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٦﴾ وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا ۚ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ﴾ [سورة الحاقة: ١٦ -١٧].

«أي: على حافَّاتها حين تنشق، والظاهر أن الضمير في حافاتها عائد على السماء، وقيل: على حافّات الأرض، ينزلون إليها يحفظون أطرافها، وإن لم يجر لها ذكر قريب. ورُوي أن الله تعالى يأمر ملائكة سماء الدنيا فيقفون صفاً على حافات الأرض، ثم ملائكة الثانية فَيُصَفُّون حولهم، ثم ملائكة كل سماء، فكلما ندّ أحد من الجن والإنس وجن الأرض أحيط بها»[٤٢].

وقيل «المـَلَك هنا اسم جنس، والأرجاء الجوانب واحدها (رجى) مقصور، والضمير يعود على السماء، والمعنى أنّ الملائكة يكونون يوم القيامة على جوانب السماء؛ لأنّها إذا وَهِيَتْ وقفوا على أطرافها، وقيل: يعود على الأرض؛ لأنّ المعنى يقتضيه، وإن لم يتقدم ذكرها، ورُوي في ذلك أنّ الله يأمر الملائكة فتقف صفوفاً على جوانب الأرض[٤٣].

وقيل: الملائكة على شقها، أي: على حافاتها، على ما لم يَهِ منها، ينظرون إلى أهل الأرض، وما أتاهم من الفزع[٤٤].

تتبين في قوله تعالى: ﴿أَرْجَآئِهَا﴾ دلالة التوسع باستعمال الضمير فقد نَكَّرَ الأرجاء وأضافها إلى الغائب، إذ في قولنا: على أرجاء السماء أو الأرض، دلالة الكلام على السماء أو الأرض،

(٤٢) البحر المحيط: ٣/ ٣١٨، ١٠/ ٣٣٩. ولم أجده في متون الحديث ولا شروحه.
(٤٣) ينظر التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي: ١/ ٢٤٥٨.
(٤٤) ينظر النكت والعيون: ٤/ ٣١٧. والدر المنثور في التأويل بالمأثور، للامام السيوطي: ١٠/ ٩٢.

وفي تعريف (الأرجاء) بأل؛ الدلالة على الأرجاء المعروفة، أمّا في قوله تعالى: (أرجائها)، فدلالة الكلام على الكيفية، ليشمل حالة المَـــلَك في ذاك الوقت، بدليل تشقق السماء يومئذ والمَلَك يقفون على أرجائها الباقية بعد التشقق. ومما يدلل على عدم حصر الإرادة بـ (أرجاء السماء أو الأرض)؛ أنه من المروي أن الملائكة يحفُّون السماء والأرض، ولايوجد مقدار أربعة أصابع إلا ومَلَك ساجد أو راكع، ولذلك كان يقول عليه الصلاة والسلام: (إني أرى مالا ترون وأسمع مالا تسمعون أطَّت السماء وحق لها أن تَئِط ما فيها موضع أربع أصابع إلا وملك واضع جبهته ساجدا لله)، وفي رواية (أَطَّتْ السَّمَاءُ وَحُقَّ لَهَا أَنْ تَئِطَّ مَا فِيهَا مَوْضِعُ أَرْبَعِ أَصَابِعٍ إِلاَّ وَمَلَكٌ قائم أو مَلَكٌ سَاجِد أو مَلَكٌ راكع)[٤٥]،

فترجَّح أنه أراد التعبير عن حالة مخصوصة من مشاهد يوم القيامة لانَعلمُ كُنهها ولا كيفها، فهذه الأرجاء المخصوصة تضاف الى الأرجاء السابقة. فتأمّل روعة هذا التعبير بين التوسع والتخصيص.

المبحث الرابع
دلالات مجازية

هي دلالات متعددة مستوحاة من تفاعل دلالة الضمير ودلالة السياق، وفيه؛ أولاً: دلالة الكناية في إضافة الضمير(ها) للكلمات (أدبار و وأثقال و أخبار)، ثانياً: دلالة كناية الغيبة والخفاء بإضافة الضمير(ها) لكلمة (أشراط) (المجاز المستعار للتمثيل)، ثالثاً: دلالة المجاز في إضافة الضمير(ها) لكلمتي (أنباء وأبصار).

أولاً: دلالة الكناية في إضافة الضمير (ها) للكلمات (أدبار و أثقال و أخبار).

١. إضافة الضمير (ها) لكلمة (أدبار).

السياق القرآني نَكَّرَ جمع التكسير (أدبار)، للدلالة على الإبهام والعموم، ثم أضاف الجمع إلى ضمير الغائب المؤنث (ها) للدلالة على النسبة

(٤٥) ينظر الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام وإظهار محاسن الإسلام، لأبي عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح القرطبي: ١/ ٣١٣، و التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، د وهبة بن مصطفى الزحيلي للزحيلي: ٢٩/ ٢٣٩، و الجامع لأحكام القرآن: ٤/ ٢٨٤. ولم أعثر عليه في متون الحديث ولا شروحه.

والتخصيص، فلما تداعى العموم والخصوص بانَ التوسع في دلالة السياق، فدلت (أدبارها) على الأدبار حقيقةً، وعلى أدبار الوجوه كنايةً، وأدبار الذين أوتوا الكتاب مجازاً على الكناية، في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ ءَامِنُواْ بِمَا نَزَّلۡنَا مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبۡلِ أَن نَّطۡمِسَ وُجُوهٗا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدۡبَارِهَآ أَوۡ نَلۡعَنَهُمۡ كَمَا لَعَنَّآ أَصۡحَٰبَ ٱلسَّبۡتِ ﴾[سورة النساء: ٤٧].

لقد قيل في (نطمس وجوهاً فنردها على أدبارها) أقوال، أشهرها:

أ. أن نَطمِسَ وجوهاً، أي: نمحو تخطيط صورها من عينٍ وحاجبٍ وأنفٍ وفم، فَنَردّها على أدبارها، فنجعلها على هيئة أدبارها وهي الأقفاء مطموسة مثلها[٤٦].

ب. نجعل عيونها في أقفائها حتى تمشي القهقرى[٤٧].

ج. نطمسها عن الهدى فنردها على أدبارها، أي: في ضَلالها ذمّاً لها بأنها لا تصلح أبدا[٤٨].

د. يطلق الطمس مجازا على إبطال خصائص الشيء المألوفة منه. ومنه طمس القلوب، أي: إبطال آثار التمييز والمعرفة منها[٤٩].

ه. تنكيس الرؤوس إلى الوراء، وإن كان الطمس هنا مجازا وهو الظاهر، فهو وعيد بزوال وجاهة اليهود في بلاد العرب، ورميهم بالمذلة بعد أن كانوا هناك أَعِزَّة ذوي مال وعدّة، فقد كان منهم السموأل قبل البعثة، ومنهم أبو رافع تاجر أهل الحجاز، ومنهم كعب بن الأشرف، سيد جهته في عصر الهجرة[٥٠].

و. يحتمل أن يكون مجازا بمعنى القهقرى، أي: إصارتهم إلى بئس المصير؛ ويحتمل أن يكون حقيقةً، وهو رَدُّهم من حيث أَتَوا، أو إجلاؤهم من بلاد

(٤٦) تفسير البحر المحيط: ٤/ ١٦٧.
(٤٧) ينظر: النكت والعيون: ١/ ٣٠٣.
(٤٨) ينظر: النكت والعيون: ١/ ٣٠٣.
(٤٩) تفسير البحر المحيط: ٤/ ١٦٧.
(٥٠) ينظر: النكت والعيون١/ ٣٠٣، و تفسير الخازن٢/ ١٠٩، وتفسير القرآن، لأبي المظفر منصور بن محمد بن عبد الجبار السمعاني: ١/ ٤٣٤، و روح المعاني، الآلوسي: ٤/ ٧٨.

العرب إلى الشام[٥١].

ثم تأمل كيف نسبَ السياق القرآني (الأدبار) إلى (الوجوه)؛ لأنّنا لو نسبنا الوجوه إلى الأدبار؛ فالوجوه لا أَدبار لها ظاهراً، وكذا الأدبار لا وجوه لها، لذا خصَّص النصّ الأدبار بالضمير؛ ليحتمل أدبار الأجسام التي تحمل الوجوه، أي: ترتدّ الوجوه فتنظر إلى الأدبار فيكون الرأس بالمعكوس، فيسير الإنسان مُدبراً يحسب أنه يسير مقبلاً، وهذا من سوء الفأل، وهو أن يسير المرء على عكس ما يخطط. وفيه إشارة إلى أن الإنسان يمكن أن يُعاكسَ في سيره الطريق الصواب، ويخالفه فيسير عكس الاتجاه نحو الهاوية. ومن الممكن أن يكون كناية عن إلغاء الحواس فهم صُمٌّ بُكمٌ عُميٌ، وقد وُصِفوا بهذا الوصف في سورة البقرة ﴿ صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ ﴾[سورة البقرة: ١٨]، فلما جاء بالضمير وافق الأمر المتكَلَّم عليه الذي فيه خفاء واحتمال وجوه حتى يذهبوا فيه كل مذهب تتوسع فيه الدلالة، فتوسع في الاحتمال، وخصص في الكناية ليخصص كل صنف ماينا سبه والله تعالى أعلم.

٢. إضافة الضمير (ها) للكلمتين (أثقال، وأخبار).

في قوله تعالى: ﴿ إِذَا زُلۡزِلَتِ ٱلۡأَرۡضُ زِلۡزَالَهَا ۝١ وَأَخۡرَجَتِ ٱلۡأَرۡضُ أَثۡقَالَهَا ۝٢ وَقَالَ ٱلۡإِنسَٰنُ مَا لَهَا ۝٣ يَوۡمَئِذٖ تُحَدِّثُ أَخۡبَارَهَا ﴾[سورة الزلزلة: ١ – ٤].

قيل إنها تزلزل عند النفخة الأولى فتخرج كنوزها وتزلزل عند الثانية فتخرج موتاها، وهو ما أشار إليه الآلوسي[٥٢]. وإن دلالة الضمير في قوله تعالى: ﴿ زِلۡزَالَهَا ﴾، توحي بالعظمة، أي: زلزالها العنيف الذي لا يشبه الزلازل المعهودة.

وذهب ابن عاشور مذهباً نتلمس فيه دلالة القصدية والنسبة دالاً على التوسع، إذ قال: «وأضيف {زِلْزَالَهَا} إلى ضمير الأرض؛ لإفادة تمكنه منها وتكرره حتى كأنه عرف بنسبته إليها لكثرة اتصاله بها...، وإخراج الأرض أثقالها ناشئ عن انشقاق

(٥١) الكشاف: ١/ ٤١٧، والتحرير والتنوير: ٤/ ١٥٠.

(٥٢) ينظر روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني للآلوسي: ٢٣/ ٨٣.

سطحها فتقذف ما فيها من معادن ومياه وصخر. وذلك من تكرر الانفجارات الناشئة عن اضطراب داخل طبقاتها وانقلاب أعاليها أسافل والعكس»[٥٣].

وقيل: «لأنَّ إخراجَ الأثقالِ حالُ بعضِ أجزائِها»[٥٤].

أمّا «أخرجت الأرضُ أثقالها، أي: ما في جوفها من الأموات والدفائن، جمع: ثِقْل، وإظهار الأرض في موضع الإضمار لزيادة التقرير، أو: للإيماء إلى تبدُّل الأرض غير الأرض»[٥٥]. «وقيل: موتاها تُخرجهم في النفخة الثانية، ومنه قيل للجن والإنس: الثقلان»[٥٦]، وقيل «الأثقال: كنوز الأرض، وموتاها، والذُّنوب، والأحمال الثقيلة»[٥٧]، ويحتمل أن يكون إخراج الموتى كالكنوز عند النفخة الأولى وإحياؤها في النفخة الثانية، وتكون على وجه الأرض بين النفختين.

إنّ دلالة (أثقالها) تعني الأثقال غير المُتَصوَّرة عند البشر، أي: غير المنظورة وغير المدركة. شيء فاق حدود المتوقع. ثم إنّ تخصيصها بالضمير يدل على النسبة والاستغراق. إذ المراد الأثقال التي تخصها من أصول الجبال التي تُثَبِّت الأرض مغروسةً فيها كالأوتاد، فإذا خرجت من أوكارها تفجَّرت الأرض فثارت البراكين وسارت ينابيع الحِمَم، أما الأثقال الأخرى من دَفائن وأموال فتحتمل القصد وربما لا تكون مقصودة، فاستبان التوسع في النص من إضافة الضمير، والأصل: (أخرجت الأرض أثقال الارض)، وهذه الفخامة ستتممها الآية اللاحقة.

يقول النحاة: انتقل الى الضمير لتجاوز التكرار، والحقيقة أنه لا يوجد تكرار هنا، فالأرض الأولى فاعل، والثانية مضاف، والمخصص بالإضافة وهو المفعول معرفة أو يقوم مقام المعرفة بالتمام، فيصبح المعنى (أخرجت الأرض الأثقال) أي: كل الأثقال لا تُبقي شيئاً، وهذا هو

(٥٣) التحرير والتنوير: ٣٠/ ٤٣٣.
(٥٤) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم للماوردي: ٧/ ٤٦.
(٥٥) البحر المحيط: ١١/ ٢٠.
(٥٦) النكت والعيون، للماوردي: ٤/ ٤٤٤، وينظر وتفسير اللباب في علوم الكتاب، : ١٦/ ٤١٩.
(٥٧) القاموس المحيط، الفيروز آبادي: ١٠٤٥ (ثقل).

التغيير المذكور، وحقيقة إضافته إلى ضمير تعني أثقالاً منسوبةً لها لا كل الأثقال، وهو معلوم من قول أبي عبيدة: أنّ الثقل في بطنها ينسب لها، وعلى ظهرها أي: عليها، فإذا أخرجت نصف الأثقال سواء كانت في بطنها أو فوقها فإنّه يصدق عليها أثقالها، وكذا إن كان أقل أو أكثر. لكن لا يعني أن المراد منه الشمول والاستغراق، وهذه هي فائدة الكناية، إذ كَنّى بها عن النسبة من غير استغراق، بعكس الاسم.

أما في الآية الرابعة من السورة نفسها، في قوله تعالى: ﴿ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴾ [سورة الزلزلة: ٤]، ففيها أوجُهٌ، منها: تُحدِّث أخبارها بأعمال العباد على ظهرها، وهذا قول من زعم أنها زلزلة القيامة. ومنها: تُحدِّث بقيام الساعة إذا قال الإنسان ما لها، قال ابن مسعود: فتخبر بأنّ أمر الدنيا قد انقضى، وأنّ أمر الآخرة قد أتى، فيكون ذلك منها جواباً عند سؤالهم، وعيداً للكافر وإنذاراً للمؤمن[٥٨]. وقال الآلوسي: «(أَخْبَارَهَا) باعتبار تعدد دلالتها على عدد القائلين»[٥٩].

إنّ افتتاح الكلام بظرف الزمان، وإطالة الجملة التي أضيف إليها الظرف؛ فيه تشويق إلى متعلق الظرف، إذ المقصود ليس توقيت صدور الناس أشتاتا لِيُروا أعمالهم، بل الإخبار عن وقوع ذلك وهو البعث، ثم الجزاء، وفي ذلك تنزيل وقوع البعث منزلة الشيء المحقق المفروغ منه الذي لا يهم الناس إلا معرفة وقته وأشراطه، فيكون التوقيت كناية عن تحقيق وقوع الموقت. وما يحدث فيه من الأهوال، فهو مجاز، وحديث بلسان الحال، وقيل: هو شهادتها على الناس بما عملوا على ظهرها فهو حقيقة، فيعم قوله تعالى: ﴿ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴾ أي تخبر الأرض الأخبارَ، فالأرض هي التي تحكي وتسردُ وتحدِّثُ وتقصُّ الأخبارَ، والأخبار مفعول، فالتقدير: تحدّث الأرض أخبار الأرض، فصارت الاخبارُ مُخبِرةً وحلّت محل الفاعل في الإخبار، فكأنه صار فاعلان: الأول (تحدث الأرض) والثاني

(٥٨) ينظر إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم للعمادي: ٧/ ٤٦.

(٥٩) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني للآلوسي: ٢٣/ ٨٣.

(تحدث أخبار الأرض)، وتكون الجملة الثانية في محل مفعول للجملة الأولى، فهذا توسع في الدلالة يصير الى فاعلين أحدهما مفعول به حقيقةً.

إن وجود الضمير هنا يحل هذا المشكل فيزول الحرج، فبدل أن تكون الدلالة (تحدث الأرض أخبارها) والمتحدَّثُ عنه الأخبار، يتحول المفعول فاعلاً؛ لأن حقيقة الأَخبار مُخبِرة، ويحافظ على دلالة الأصل فيكون (تُحدِّث الأرضُ الأخبارَ)، أي: تُعدِّد الأخبارَ وتُخبرها، ويبقى الفعل تُحدّث، متعدياً لا لازماً، والتقدير: تحدث الأرضُ أخباراً هي أخبرت بها لا الأخبار التي أُخبرت بها -وهذه الأخبار أخبار مخصوصة معهودة بهذا الأمر، أي: ما يخص الأنسان وسؤاله، وهو سؤال المشدوه المبهوت المفجوء، الذي يرى ما لم يَعهد، ويواجه ما لا يُدرك، ويَشهد ما لا يَملِكُ، الصبرُ أمامه والسكوت، (مالها) ما الذي يزلزلها هكذا، ويرجُّها رجاً، (مالها)؟. وكأنه يتمايل على ظهرها ويترنح معها؛ ويحاول أن يُمسك بأي شيء يسنده ويثبته وكل ما حوله يمور موراً شديداً، والإنسان قد شَهِدَ الزلازل والبراكين من قبلُ وكان يُصاب منها بالهَلع والذُعر والهلاك والدمار ولكنه حين يرى زلزال يوم القيامة لا يجد شبهاً بينه وبين ما كان يقع من الزلازل والبراكين في الحياة الدنيا. فهذا أمرٌ جديد لا عَهد للإنسان به، أمر لا يعرف له سراً ولا يذكر له نظيراً، أمر هائل يقع للمرة الأولى. (يومئذ) يوم يقع هذا الزلزال ويُشْدَهُ أمامه الإنسان؛ (تُحَدِّثُ أخبارها، بأن ربك أوحى لها)، يومئذ تُحدث هذه الأرض أخبارها وتصف حالها وما جرى لها. لقد كان ما كان لها بأن ربك أوحى لها وأمرها أن تمور موراً، وأن تزلزل زلزالها، وأن تُخرج أثقالها؛ فأطاعت أمر ربها وأذِنت لربها وحُقَّت. تُحدِّث أخبارها، فهذا الحال حديث واضح عما وراءه من أمر الله ووحيه إليها، لذا جاء ضمير الكناية دليل إضافةِ نسبةِ العمل لا الأَخبار المنسوبة، أي: الأخبار التي أخبرتها. وهنا لا توحي صيغة (أفعال) بالدلالة على القلة أبداً، وكيف تصحب القلة أحرف الإطلاق والمد والاستطالة؟!.

ثانياً: دلالة كناية الغيبة والخفاء

بإضافة الضمير(ها) لكلمة (أشراط) (المجاز المستعار للتمثيل) العلامة والأمارة هما الأثر الذي تتركه الأداة التي يُعَلَّم بها، والعلامات التي تظهر بوجود مؤثر هي الأشراط، ووجود المؤثر دليل وجود المتأثر، وعلى هذا يكون المراد في قوله تعالى: ﴿ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ ﴾[سورة محمد: ١٨]، أي: كلٌ رأى علاماتها، إذ لابد من ظهورها أولاً، ولا بد من وجود سبب لظهورها، ففي قوله: «(فقد جاء أشراطها) تعليل لمفاجأتها، لا لمطلَق إتيانها، على معنى: أنّه لم يبقَ من الأمور الموجبة للتذكير أمر مترقب ينتظرونه سوى إتيان نفس الساعة إذ قد جاء أشراطها، فلم يرفعوا لها رأساً، ولم يعدُّوها من مبادئ إتيانها، فيكون إتيانها بطريق المفاجأة لا محالة»[٦٠].

أما استغراق النسبة بالضمير (ها) فهو دليل عموم الحال المتأتّي من خصوص الإضافة، فدلّ على تخصّص الأشراط بالساعة، ودلّ بالتوسّع على شمول عموم الأشراط بدلالة صيغة (أفعال)، ودلالة الاتساع في المساحة الزمانية المتأتية من التوسع الصوتي للمدّ الطبيعي في ألف الضمير.

وفي قوله: (قد جاء أشراطها) كذلك، تحقق وقوع الشرط بوجود مظهره، وهذا من المجاز المستعار للتمثيل، ويؤكد هذا لفظة (المجيء) التي تعني تحقق الوقوع؛ لأن اللفظ متأخر عن الدلالة، فحين نقول: مجيء و جيئة، فهو دلالة على العودة الى الخلف لا التقدم الى الأمام، وهذا يعني أن أشراطها قد وقعت، وتؤكد ذلك صيغة الماضي المقرونة بحرف التحقيق (قد جاء)، أي: وقعت أشراطها. وهذا خِلاف (الذهاب) الذي هو المغادرة الى الأمام، والذي هو الإتيان الذي لا ينصرف إلى الماضي، قال تعالى: ﴿ أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾، وفي إضافة النكرة إلى الضمير دليل شمول الأشراط بلا استثناء. وإذا أضفنا الأشراط إلى الساعة (أشراط الساعة) تكون العلامات والأمارات جميعها قد ظهرت وعُلِمت؛ لأنّها جاءت؛ ولأنّه ذَكَرَ (قد) وهي مع

(٦٠) البحر المديد: ٦/ ٦١.

الماضي تفيد التحقيق.

ومن الاتساع كذلك الضمير يحتمل العودة إلى الساعة والبغتة معاً، أو إحداهما، أي: جاءت أشراط الساعة أو أشراط البغتة. فضمير الكناية عائم يَسَع الأمرين معاً، وفي خفاء الدلالة على أحدهما سر عجيب، إذ جعلهم في حَيرة من أمرهم، فهم لا يدركون ما تحقق أشراطه، أهو الساعة؟. فلا يعلمون متى تَقَع، وإن تحقّقوا من وقوع علاماتها وقُربها، ولا هم يعلمون وقت المباغتة وأماراتها؟!!. وهذا هو حالهم، فقد وصف الله تعالى عدم إدراكهم بقوله: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ﴾ [سورة محمد: ١٦]، نعم هم خرجوا من عنده وكانوا يسمعون، لكنهم لا يعلمون، إذ هم ليسوا من الذين أوتوا العلم، لذا فهم يسألون الذين أوتوا العلم. أولئك طبع الله على قلوبهم، فهم يرون علامات الساعة ولا يأبهون لها ولا يتعلمون من أخطائهم، ويرون علامات المباغتة ولا يعتبرون بها ولا يأبهون لها، اتبعوا أهواءهم وأضاعوا الصواب والهدى.

أليس في كناية الغيبة والخفاء دلالة مطابقة بين الحال والخطاب؟. إذ جعل الخفاء في المكني خفاءً في الدلالة على الحال، والله تعالى أعلم.

ثالثاً: دلالة المجاز في إضافة الضمير (ها) لكلمتي (أنباء و أبصار).

١. إضافة الضمير (ها) لكلمة (أنباء).

في قوله تعالى: ﴿ تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [سورة الأعراف: ١٠١].

من أنبائها، أي «بعض أخبارها، ولها أنباء غيرها لا نقصها عليك»[٦١]. قال الزمخشري: «فإن قلت: ما معنى الإخبار عن القرى بنقصّ عليك من أنبائها؟. قلت: معناه: أن تلك القرى المذكورة نقص عليك بعض أنبائها ولها أنباء غيرها لم نقصها عليك»[٦٢]، «وتصديرُ الكلام

(٦١) البحر المديد: ٢/ ٢٧٢.
(٦٢) الكشاف: ٢/ ٢٦٤.

بذكر القرى وإضافةُ الأنباء إليها مع أن المقصوصَ أنباءُ أهلِها، والمقصودُ بيانُ أحوالهم حسبما يُعرب عنه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ لما أن حكايةَ هلاكِهم بالمرة على وجه الاستئصالِ بحيث يشمل أماكنَهم أيضاً بالخسف بها والرجفةِ وبقائِها خاويةً معطلةً أهولُ وأفظعُ»[٦٣]، وهو مجاز علاقته المكانية. مثل قوله تعالى: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ أي أهل القرية.

قال ابن عاشور: «(من) تبعيضية؛ لأنّ لها أنباء غير ما ذُكر هنا مما ذكر بعضه في آيات أخرى، وطُوي ذكر بعضه لعدم الحاجة إليه في التبليغ؛ لأنّه إنما قصّ ﷺ ما فيه عِظة وزجر. والمراد بالقرى وضمير أنبائها: أهلها. كما دل عليه الضمير في قوله: (رُسُلُهُمْ)»[٦٤].

ويبدو التوسع، وتبدو قصدية السياق من إضافة أنباء إلى الضمير (ها)، وهذا واضح من السياق القراني، فلو قال أنباء القرى، لاختص الأمر بالقرى، لكن مع الضمير يحتمل أنباء أهلها، وأنباء تكذيبهم، وأنباء رُسُلِها، وأنباء القرى، وأنباء أنهارها، وجبالها، وسهولها وغير ذلك، وإنما أضاف الأنباء إلى الضمير للإشارة إلى ما آل إليه حالهم وحال قراهم من خراب ودمار وخسف وإغراق وريح، بسبب التكذيب ففي الضمير توسع في الدلالة يوحي بتوسع الأحداث، وتعددها، وتنوّعها، وبالضمن يدلّ على التخصص بأنباءٍ دون غيرها، دلّت عليها الإضافة إلى موجود معلوم؛ لخفاء مجهولٍ غير موجود، أكّدت وجوده (مِن) التبعيضية، والله تعالى أعلم.

٢. إضافة الضمير (ها) لكلمة (أبصار).

في قوله تعالى: ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ۝٨ أَبْصَـٰرُهَا خَٰشِعَةٌ﴾ [سورة النازعات: ٨، ٩]، «كناية عن الذل والخوف، وإضافة الأبصار إلى القلوب على تجوز، والتقدير: قلوبُ أصحابها»[٦٥]، «أي: أبصار أصحاب القلوب. والخشوع حقيقته: الخضوع والتذلل، وهو هيئة

(٦٣) تفسيرابي السعود: ٣/ ٢٣، و ينظر روح المعاني: ٦/ ٢٨٣.

(٦٤) التحرير والتنوير: ٨/ ٢١٨.

(٦٥) التسهيل لعلوم التنزيل: ١/ ٢٥٤٥

للإنسان، ووصف الأبصار به مجاز في الانخفاض والنظر من طرف خفي من شدة الهلع والخوف من فظيع ما تشاهده من سوء المعاملة»[٦٦].

لقد توسع الضمير في دلالته ليشمل (أبصار أصحاب القلوب)، ويدل بالكناية على (أبصار القلوب)؛ لأن تنكير الأبصار وإضافتها إلى الضمير غرضه التوسع والعموم، وإضافة الضمير إليه يدل على القصدية في إرادة التوسع، بسبب الدلالة على التخصص، فتأمل كيف مزج بين الأبصار والقلوب، فجعل القلوب تنظر وجعل الأبصار تخشع، وبدَّلَ الوظائف فأودع في القلوب وظيفتين فصارت القلوب واجفة محدِّقة خاشعة ذليلة، تتحكم بالبصر فإذا انكسرت القلوب انكسر البصر، وهذا يُصَدّقه قول الشاعر:

وإطراقُ طَرف العين ليس بنافعٍ
إذا لم يكنْ طَرفُ الفؤادِ بِمُطرِقِ

ذاك هو القصد في هذا التصوير الفني المجازي، في لوحة فنية معبرة وسيلتها اللغوية الدلالية الضمير(ها).

نتائج البحث

بعد التبحر في مواطن العلم في كتاب الله الخالد، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، توصلنا الى نتائج عدة اهمها:

١. ان إضافة ضمير الكناية (ها) إلى صيغة (أفعال) يحتمل الدلالة على العموم والخصوص فهو من أساليب التوسع في البيان العربي والقراني.
٢. النسبة في ضمير الكناية إلى هذه الصيغة هي نسبة فاعلية وأحياناً نسبة مفعولية وقد تكون نسبة تخصيص وهو الأقل في الدلالة القرانية.
٣. وجدنا ترابطاً واتساقاً بين دلالة الضمير ودلالة المجاز في السياق القرآني.
٤. وجدنا دلالات توسعية نوعية عددية وكميّة، مكانية ومجازية مضافة إلى دلالة الصيغة في السياق القراني.
٥. الدلالة حقيقية لصيغة أفعال على الكثرة وليست القلة، ووجود ضمير الكناية (ها) لها مزية في قصدية التعيين

(٦٦) التحرير والتنوير: ٣٠/ ٦٠.

والتحديد والنسبة وتوسع الدلالة في السياق القراني.

٦. إضافة الضمير (ها) لم يرد إلا في المجردات والجمادات مما جُمع على صيغة (أفعال) وهي: الأبواب، الأقفال، الأمثال، الألوان، الأكمام، الأشعار، الأوبار، الأصواف، الأقوات، الأطراف، الأقطار، الأرجاء، الأدبار، الأثقال، الأخبار، الأشراط، الأنباء، الأبصار.

٧. لم تُضَف الجموع المتعلقة بالإنسان والحيوان مثل: أقوام و أنعام، ولا صفاتها إلى الضمير (ها) في السياق القراني.

ثبت المصادر والمراجع:

١. الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام وإظهار محاسن الإسلام، لأبي عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح القرطبي، تحـ: د. أحمد حجازي السقا، دار التراث العربي –القاهرة، ١٣٩٨.

٢. إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم (تفسير أبي السعود)، لأبي السعود العمادي محمد بن محمد بن مصطفى، (٩٨٢هـ). دار الكتب العلمية –بيروت ١٩٩٩م.

٣. أسرار النحو، لشمس الدين أحمد بن سلمان المعروف بابن سلام باشا (ت٩٤٠هـ)، منشورات دار الفكر.

٤. أسرار التنزيل وأنوار التأويل، للإمام فخر الدين الرازي (٦٠٤هـ)، تحـ محمود أحمد محمد وآخرين، دار واسط–بغداد، ١٩٩٠م.

٥. البحر المحيط، لأبي حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان النحوي الأندلسي، (٧٤٥هـ). دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، ٢٠٠٧م.

٦. البحر المديد في تفسير القرآن المجيد، لأبي العباس أحمد بن محمد بن المهدي بن عجيبة الصوفي (١٢٢٤هـ) (١٨٠٩م)، تحـ: أحمد عبد الله القرشي رتيثان، ط ٢، دار الكتب العلمية–بيروت، ١٤٢٣ هـ–٢٠٠٢ م. المكتبة الشاملة.

٧. التحرير والتنوير المعروف بتفسير

ابن عاشور، لمحمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي(١٣٩٣هـ)، دار سحنون للنشر والتوزيع -تونس- ١٩٩٧ م.

٨. التسهيل لعلوم التنزيل، للإمام محمد بن أحمد بن محمد بن جزي الكلبي الغرناطي، عناية: أبو بكر بن عبد الله سعداوي، المنتدى الإسلامي- حكومة الشارقة، الطبعة الأولى ١٤٣٣هـ/ ٢٠١٢م.

٩. تفسير روح البيان، لأبي الفداء إسماعيل حقي بن مصطفى الإستانبولي الحنفي الخلوتي(١١٢٧هـ -١٧١٥م)، دار إحياء التراث العربي.

١٠. تفسير القرآن، لأبي المظفر منصور بن محمد بن عبد الجبار السمعاني (٤٨٩هـ) تحـ. ياسر بن إبراهيم و غنيم بن عباس بن غنيم، الناشر دار الوطن -الرياض، السعودية، ١٤١٨هـ-١٩٩٧م.

١١. تفسير القرآن العظيم ، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي(ت: ٧٧٤هـ). ، تحـ: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع.

١٢. التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، دوهبة بن مصطفى الزحيلي، دار الفكر المعاصر -بيروت، دمشق ط/ ٢، ١٤١٨ هـ.

١٣. جامع الأحاديث، لجلال الدين السيوطي، جمع وترتيب عباس أحمد صقر و أحمد عبد الجواد دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.

١٤. جامع البيان في تأويل القرآن، لأبي جعفر محمد بن جرير بن يزيد الطبري(٣١٠هـ)، تحـ: أحمد محمد شاكر، ط: ١، مؤسسة الرسالة،، ٤٢٠ هـ-٢٠٠٠م.

١٥. الجامع لأحكام القرآن، لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، دار الكتاب العربي، القاهرة، ١٣٨٧هـ-١٩٦٧ م.

١٦. حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح، لأبي عبد الله محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي، دار الكتب العلمية- بيروت.

١٧. الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، أحمد بن يوسف المعروف السمين الحلبي (٧٥٦هـ) تحـ أحمد محمد الخراط، دار القلم، دمشق، ط٢، ٢٠٠٨.

١٨. الدر المنثور في التأويل بالمأثور، لعبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي، (ت: ٩١١هـ). تحـ. مركز هجر للبحوث، دار هجر -مصر، سنة النشر: ١٤٢٤ هـ-٢٠٠٣ م.

١٩. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، لشهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي،، (١٢٧٠هـ). دار الفكر للطباعة والنشر -بيروت لبنان، ١٤٠٨هـ-١٩٨٧م.

٢٠. السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير، شمس الدين لمحمد بن أحمد الخطيب الشربيني، (ت: ٩٧٧هـ)/ دار الكتب العلمية -بيروت.

٢١. شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك، لبهاء الدين عبد الله بن عقيل (٧٦٩هـ)، تحـ: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الفكر، بيروت، ط١٦، ١٩٧٤م.

٢٢. شرح التصريح على التوضيح، خالد بن عبد الله الأزهري، (ت٩٠٠هـ)، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، (د. ت).

٢٣. شرح الرضي على كتاب الكافية في النحو، لرضي الدين محمد بن الحسن الاستربادي، (٦٨٦هـ)، تصحيح وتعليق: يوسف حسن عمر، منشورات جامعة قار يونس، بنغازي، ١٩٩٦ م.

٢٤. شرح شذور الذهب في معرفة كلام العرب، لابن هشام الأنصاري، تحـ: محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة التجارية الكبرى، (د، ت).

٢٥. شرح ألفية ابن مالك، لابن الناظم. ت. د/ عبد الحميد السيد محمد عبد الحميد، ط/ دار الجيل -بيروت، بدون.

٢٦. شرح المفصل، لأبي البقاء موفق الدين يعيش بن علي بن يعيش الموصلي

(٦٤٣هـ) دار الكتب العلمية، بيروت، ط/ ١، ١٤٢٢هـ.
٢٧. شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل، لأبي عبد الله محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي، تحـ: محمد بدر الدين أبو فراس النعساني الحلبي، دار الفكر -بيروت، ١٣٩٨-١٩٧٨.
٢٨. ضمائر الغيبة، ضمائر الغيبة أصولها وتطورها، بحث للدكتور فوزي حسن الشايب، مجلة حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية، مجلس النشر العلمي -جامعة الكويت المجلد: ٨ العدد: ٤٦/ ١٩٨٧.
٢٩. القاموس المحيط، لمجد الدين الفيروزآبادي، المكتبة التجارية الكبرى مصر، (د. ت).
٣٠. الكتاب، لسيبويه أبي عمرو بن عثمان بن قنبر، تحـ ، عبد السلام هارون، دار عالم الكتب ٢٠٠١، ط/ ٢.
٣١. الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، لأبي القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله، (٥٣٨هـ). دار التراث العربي ، بيروت.
٣٢. الكشف والبيان، لأبي إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي النيسابوري،، تحـ: الإمام أبي محمد بن عاشور، ط: ١، دار إحياء التراث العربي -بيروت -لبنان -١٤٢٢هـ-٢٠٠٢ م.
٣٣. الكليات، لأبي البقاء أيوب بن موسى الحسيني الكفوي، تحـ: عدنان درويش-محمد المصري، مؤسسة الرسالة -بيروت -١٤١٩هـ-١٩٩٨م.
٣٤. اللباب في علوم الكتاب، لأبي حفص سراج الدين عمر بن علي بن عادل الحنبلي الدمشقي النعماني، (ت: ٧٧٥هـ). تحـ: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود والشيخ علي محمد معوض، ط ١، دار الكتب العلمية -بيروت/ لبنان -١٤١٩ هـ -١٩٩٨ م.
٣٥. لباب التأويل في معاني التنزيل المسمى (تفسير الخازن)، لأبي الحسن علاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم

البغدادي الشهير بالخازن (٧٤١هـ)، دار النشر: دار الفكر -بيروت/ لبنان-١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩ م.

٣٦. لسان العرب، لابن منظور جمال الدين محمد بن مكرم، (٧١١هـ)، دار صادر، للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٥٦ م.

٣٧. مختصر تفسير البغوي، لعبد الله بن أحمد بن علي الزيد، ط١، دار السلام للنشر والتوزيع، الرياض ١٤١٦هـ.

٣٨. معالم التنزيل، لأبي محمد الحسين بن مسعود البغوي (٥١٦ هـ)، حققه وخرج أحاديثه محمد عبد الله النمر- عثمان جمعة ضميرية -سليمان مسلم الحرش، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط/ ٤، ١٤١٧ هـ -١٩٩٧ م.

٣٩. معاني النحو، د. فاضل السامرائي، ط/ ٢، دارالفكر، ٢٠٠٣.

٤٠. معجم الأفعال المتعدية بحرف، لموسى بن محمد بن المليانى الأحمدي نويوات، دار العلم للملايين، ١٩٧٩.

٤١. النكت والعيون (تفسير الماوردي)، لأبي الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي، الشهير بالماوردي (٤٥٠هـ) تحـ: السيد بن عبد المقصود بن عبد الرحيم دار الكتب العلمية -بيروت/ لبنان.

٤٢. همع الهوامع في شرح جمع الجوامع في علم العربية، للامام جلال الدين السيوطي (ت٩١١) د/ المعرفة بيروت، ط/ ٢، ٢٠٠٢ م.